

الحياة الاجتماعية والثقافية في الأندلس

من خلال كتب التصويب اللغوي

زاهية ركن*

الملخص:

ظهر في اللغة العربية نوع من التأليف يسعى إلى محاربة اللحن والخطأ في الاستعمال اللغوي، ابتداءً من القرن الثاني الهجري، ولكنه يحمل في طياته إشارات إلى ما أصاب اللغة العربية من تطوّر على كلّ المستويات: الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي. وكانت عبارة عن مصنفات يمكن استثمارها في رصد جوانب من الحياة الاجتماعية، والثقافية من خلال المفردات الواردة فيها. وسنحاول في هذه الدراسة إبراز بعض الملامح الثقافية، والاجتماعية لبيئة الأندلس، بالاعتماد على هذه المصنفات من خلال بعض النماذج، والتي تتمثل في: لحن العوام للزبيدي، وتنقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكّي الصقلي، والمدخل إلى تقويم اللسان لابن هشام اللّخمي.

الكلمات المفتاحية: التصويب اللغوي- الحياة – المجتمع – الثقافة – الأندلس – التعليم .

Abstract:

With second century of Hegira Arabic witnessed a form of publications tending to correct language usage faults and lapses. These productions however, brought about signs of language evolution in all its aspects: phonetics, phonology, syntax and semantics. These works can be used as normative guidelines in the study of cultural and social life facets through language exponents.

In this essay will try to evidence some cultural and social features of the Andalusian environment through examples taken from normative such as: Zubaidi's Lahn al awam , Ibn Mekki's Tathkif al lissan wa talkih al- djanan and Ibn Hisham al Lakhmi's Takwimlissan.

مقدمة:

تعتبر كتب التصويب اللغوي وثيقة هامة في بيان التطوّر اللغوي للغة العربية عبر العصور في المستويات المختلفة: الصوتي، والنحوي، والدلالي؛ وتمدّنا بمعلومات قيّمة عن مستويات استخدامها، كما لها أهمية كبيرة في رصد جوانب

من الحياة في المجتمعات الإسلامية، التي عاشت فيها هذه اللغة؛ لأنّ المفردات هي عناصر متحركة تتطور، وتساير أبسط التحولات التي تقع في الوسط الاجتماعي؛ لذلك فمن شأنها أن تفيد الباحث وتعينه على كشف بعض الحقائق، وفكّ بعض الألغاز. ويقول عبد العلي الودغيري في هذا الصدد: «والواقع أنّ هذه النصوص الخاصة بلحن العامة إذا هي أضيفت إلى أنواع أخرى من المصادر الأندلسية، لاسيما القواميس المتخصصة في المفردات الطبية والنباتية، وما ألف في موضوع الفلاحة ككتابي ابن بصال، وأبي خير الأندلسي وما ألف في الأزجال كديوان ابن قزمان، وأمثال العوام كأمثال الزجالي، وفي فن الطبخ ككتاب ابن رزين التجيبي «فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان» (...) ستشكل في مجموعها بلا ريب وثائق على جانب من الأهمية في إضاءة جوانب متعددة من حياة المجتمع الأندلسي في عهده الإسلامية»¹، لما تتضمنه من وصف دقيق لما يتعلق بالبيت، والأكل، والشرب، والطبخ إلى غير ذلك من مجالات الحياة الاجتماعية. ولهذا نعتقد بأنّ دراسة نصوص كتب التصويب والتنقيف اللغوي لا تسعى إلى تمثّل «صادق لحياة الألفاظ الدلالية فحسب، وإنما تكفل أيضاً الكشف عن الأبعاد الحقيقية الحاكمة للتطور الاجتماعي، والتفاعلات الإنسانية لتلك الحقبة الحضارية الحاسمة في تاريخ العرب، ذلك لأنّه من المسلّم به الآن أنّ اللغة إن هي إلا كائن حي لا يتخلق أو يعيش أو يتطور بمعزل عن المجتمع ومن ثمّ تتشكّل اللغة نفسياً وصياغياً بسماته ويتوصّل عن طريق تحليل مفرداتها وتقييمها علمياً دقيقاً إلى تحديد العوامل الحضارية والاجتماعية التي خلقت تلك اللغة»²، فنحن بالانطلاق من استنتاج بعض مفردات المدونة، سنحاول إمطة اللثام عن جوانب من الحياة الاجتماعية الأندلسية. ولكن لا بد من الإشارة في البداية إلى ملاحظتين نبهنا إليهما الودغيري:

- إنّ المعلومات التي تشملها هذه المصنفات لا تكفي وحدها لإعطاء صورة كاملة عن المجتمع الأندلسي، وإنّما تقدّم لنا عناصر جزئية وبسيطة، لكن يمكن إضافتها إلى مصادر، ووثائق أخرى ومن ثمّ استغلالها من قبل الدارس بغية استكمال هذه الصورة.

- أنّ هذه المادة التي تحتوي عليها هذه الكتب ليست وصفاً أو تحليلاً للمجتمع الأندلسي، وإنّما هي قائمة من المفردات تحتاج بعد جردها إلى أن توزّع إلى حقول ومجالات مختلفة، وبعد ذلك على الباحث أن يركّب منها صورة عن كلّ مجال على حدة. ولن تكون هذه الصورة تامة، لكنها تشتمل على تفاصيل دقيقة ومهمة³.

وإذا كان لكتابي الزبّيدي، وابن هشام أهمية كبيرة في تصوير ملامح المجتمع الأندلسي ما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين، فإنّ كتاب ابن مكي يبرز لنا بعضاً منها في المجتمع الصقليّ خلال القرن الخامس الهجري. وسنحاول في هذا المقام إظهار بعض هذه الملامح من خلال كلمات مفتاحية

واردة في الكتب المذكورة، ثمّ للتوسّع في الموضوع، سنستعين بمصادر أخرى، وسنستثمرها في التحليل.

1- **اللغة:** تصوّر لنا هذه الكتب اللّغة التي يتواصل بها أهل الأندلس في حياتهم اليومية، فهي لغة متميّزة عن لغة الشام، أو الحجاز، أو غيرهما من المناطق العربية الأخرى. وهذا ما حاول الزُّبيدي، وابن هشام أن يوضحانه من خلال بعض المقارنات بين الاستعمالات الخاصة بأهل الأندلس وما يقابلها من لغة أهل المشرق. وقد كان «لامتزاج العناصر السكانية وتعايشها في مجتمع واحد أثرهما في دخول مفردات متعدّدة الجنسيات إلى المعجم اليومي الذي هو بالأساس معجم عربي»⁴. وهذا ما يُفسّر كثرة المفردات المتداولة في الاستعمال اليومي ذات أصل لاتيني أو بربري، بالإضافة إلى مفردات أخرى شامية: عربية، وفارسية.

ومن الكلمات البربرية التي وردت في هذه المصنفات، كلمة «أذغص»⁵، وفي القبائلية يُنطق بالسين (أذغس) وهو أول ما يُحلب من البقرة، أو النعجة، ويُسمّى اللّبأ، ويُصنع منه طعام البركوكس، وهو كسكس خشن، ولذيذ، يؤكل في فصل الشتاء، بإضافة السمن. و«زنبيل»⁶، والنطق نفسه في القبائلية (أزنبيل) للذي تسميه العرب «زبيل»، وهو عبارة عن قفة على شكل وعاء، يُصنع من الخوص، ويوضع على ظهر الدابة، لنقل البضائع. ونستنتج من خلال هذه النماذج أنّ البربر أدخلوا تراثهم، ولغتهم، وثقافتهم إلى الأندلس، فتمازجت الثقافات، وظهر أثر ذلك في الممارسة اللغوية.

وأدخل الشاميون الفاتحون، أو المهاجرون- فيما بعد- إلى الأندلس مفردات شامية كثيرة، نذكر على سبيل المثال، لا الحصر: كلمة «إطرية» التي ينطقها الأندلسيون بفتح الهمزة، وهي «طعام أهل الشام»⁷، ويكمن الاختلاف بين الاستعمالين في طريقة النطق، أمّا في المعنى، فنورد مثال «الإجاص»⁸ الذي يُطلق عند أهل الشام على الكمثرى، وهو اختلاف في دلالة المفردات بين المشرق، والأندلس.

ودخلت إلى القاموس الأندلسي كلمات كثيرة من اللّغة الفارسية، أدخلها العرب النازحون من المشرق إلى الأندلس، مثل كلمة «بادنجان» الذي يسمّيه العرب: المَعْدُ، والوَغْدُ، والْحَدَقُ⁹، والجدير بالذكر شيوع هذه الكلمة المعربة في الاستعمال، أمّا الكلمات الأخرى، فهي فصيحة، ولكنّها مهمة.

كما عثرنا في مدوّنتنا على ألفاظ قليلة من لغات أخرى، كالحيشية، مثل «المشكاة»¹⁰، التي تعني كلّ ما يوضع فيه، أو يُحمل عليه القنديل، وكلمة «نُشاذر»¹¹ النبطية، وهي كلمات دخلت في العربية الأندلسية مع العرب الوافدين من الشام، وكلمة «الْقُولُنَج»¹² التي تدلّ على مرض معوي، مؤلم يصعب معه خروج البراز، والريح، وسببه التهاب القولون، وهذه المفردة روميّة، و«الإسباطة»¹³ وهي كلمة إسبانية تعني الخشبة التي يمسكها الملاح،

وهذه المفردات كلّها معربة دخلت القاموس العربي بفعل احتكاك العربية في الأندلس مع لغة النصارى: روم، أو أسبان محليون.

2- المرأة: تعتبر المرأة مرآة للمجتمع الذي تعيش فيه، والمرأة الأندلسية، لا تشذ عن هذه القاعدة، إذ أسست لنفسها مكانة في المجتمع الأندلسي، وساهمت في الأحداث، وقاسمت الرّجل أعباء الحياة، وأسهمت في ميدان الأدب، والثّقافة. وحين نحاول أن نبحث عن المفردات المتعلقة بالمرأة من خلال القائمة التي استقيناها من المصادر السابقة، نجد عدداً محدوداً من الكلمات، التي يمكن توزيعها على المجالات الآتية:

- مجال الحياة الزوجية: يعتبر الزواج الركيزة الأساسية لبناء الأسرة، ومظهر من المظاهر الاجتماعية التي شكلت النسيج الاجتماعي للأندلس، والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يتم الزواج الأندلسي؟ نستطيع أن نتعرف من خلال المدونة، على أنّ العادة التي كانت متبعة في المجتمع الأندلسي هي أن يتم عقد قران الرجل بالمرأة في حفل يشهده الناس ويسمون «**الملاك**» ويقال شهدنا إملاك فلان¹⁴، والتسمية نفسها في الأمازيغية (**لملاك**)، بعد اختيار الفتاة بواسطة الأهل، أو الأصدقاء، أو العريس بنفسه، كأن يشاهد الفتاة في مكان عام، وتختار العائلتان موعد الزواج، ويتكفل الزوج بكلّ النفقات، كإعداد الوليمة، وإحضار المغنيين، والراقصين، وضاربي الدفوف، وتدوم مدة الاحتفال بالزواج أسبوعاً كاملاً في منزل العريس. وتتميّز حفلات أعراس الطبقات العليا بالبذخ، والإفراط في المأكّل والمشرب، في حين نجد حفلات الطبقات الدنيا متواضعة، خفيفة الغذاء، وقليلة المأكّل. واليوم الذي تُجلى فيه العروس يسمونه «**الجلوة**»¹⁵، ومن عادة العروس أن تحمل معها متاعاً يسمّى «**شورة العروس**»¹⁶.

- مجال المهنة: احترفت الأندلسية عدّة مهن بيّنتها نصوص مدوّنتنا، فهي تقوم بمهمة «**القبالة**»¹⁷، والتسمية نفسها في الأمازيغية (**لقفل**) أي تقوم بتوليد الحوامل، أو ما يسمّى بالفرنسية (La sage femme) وتحظى بالاحترام نظراً لمهمّتها الصعبة، والنبيلة، وبالكرم، إذ تُقدّم لها الهدايا، ويُصنع لها الطعام مع النّفساء. وقد تكون الزوجة هي مربية أطفالها، وهنا تكون المسؤولية مشتركة بين الرجل والمرأة، ويكون الطفل في هذه الحالة متكاملاً نفسياً، وهذا بالنسبة للأسر المتواضعة، بينما تتكفل الحاضنة بهذه المهمة في الأسر الميسورة، وتسمى في هذه الحالة «**دادة**»، وفي العربية: داية¹⁸، وينجرّ عن ذلك تنشئة الطفل تنشئة غير سوّية، بسبب حرمانه من حنان الأمّ والأب، ومشاكل نفسية كثيرة، لا تُحمد عقباها. وفي أوقات الفراغ تقوم الأندلسية بغزل الصوف، وبيعه باستعمال «**المغزل**»¹⁹، سعيّاً منها لمساعدة زوجها، وتعتبر هذه الحرفة من الحرف الأكثر شيوعاً في المغرب العربي، والأندلس.

وانتشرت في المجتمع الأندلسي بعض الرذائل، من ذلك أنّ بعض النسوة كنّ يحترفن البغاء، ويطلق عليهنّ «الخرجيرات»²⁰؛ أي الغجريات، أو نساء دور الخراج، وكُنّ ذوات سمعة سيئة ويسكنن عادةً - في الفنادق، ويمارسن البغاء.

- مجال اللباس: تُعد الأزياء شكلاً ثقافياً، يجسّد رؤية المجتمع إزاء المعايير الاجتماعية، والثقافية، ويُبرز الاختلافات الطبقيّة، والمهنية، كما يُعبّر اللباس عن درجة التحضّر، ويأخذ أشكالاً مختلفة في طريقة تفصيلها بحسب أجزاء الجسم، وقد يكون محلياً، أي مصنوعاً في إحدى المدن الأندلسية، أو مجلوباً من المشرق، وأطلقت عليه بالتقريب الأسماء نفسها التي شاعت في المشرق ونذكر على سبيل المثال القميص الذي كانوا يطلقون عليه اسم «قرقل»، وقد ذكر الزبيدي هذا اللفظ دون تفسير سوى أنه ثوب من ملابس النساء²¹، ويسمى «قُرُقُر» بالراء عند المشاركة.

ومن عادة المرأة الأندلسية كالمشرقية، أن تغطّي رأسها بمنديل يكون في غالب الأحيان من حرير يسمى «الخمار»²²، ويمكن تفسير سبب شيوع هذا النوع من القماش، كون صناعة الحرير من الصناعات الرائجة في الأندلس، واشتهرت بذلك بعض المدن، كمدينة جيان التي بها ثلاث آلاف قرية لتربية دودة الحرير، ووصل عدد النساجين بقرطبة على سبيل المثال مائة وثلاثين ألف نساج.

- وفي مجال الزينة: نجد أنّ من عادة المرأة في الأندلس أن تتزيّن وتتجمل، ومما تصنعه أنها تُعكس شعرها أي تصنع عُكْسَةً، وهو ما تطلق عليه العرب اسم عِقْصَةٍ، لما تجمعها المرأة من شعرها. ومن زينتها - أيضاً - أن تتكحل بالإثمد، وأن تخضب يديها بالحناء. ومن حليها: الخخال، والدملج، والسوار، والمخنقة، وهي القلادة الواقعة على العنق، لأنّ القلادة عند الأندلسيين هي الحزام... إلخ.

3- الألعاب: اشتهر المجتمع الأندلسي بممارسة ألعاب شتى للترويح عن النفس، منها ما يستدعي بذل جهد عضلي، ومنها ما يُستعمل فيها العقل، والفكر، وتعتبر لعبة الشطرنج من الألعاب المفضّلة عند المسلمين، والمسيحيين على حدّ سواء. وتذكر المصادر التاريخية أنّ هذه اللعبة نُقلت في القرن الثالث الهجري، بفضل زرياب، وبعض النازحين من العراق إلى الأندلس²³، وتعتمد هذه اللعبة على الذكاء والفطنة، وتُعقد مجالس الشطرنج في المنازل أو القصور. وكان المحتسب في الأندلس يمنع لعب الشطرنج والنرد، والقمار، لأنّها من المحرّمات التي تؤدّي إلى إلهاء الناس عن إقامة فرائضهم.

ومن اللعب المذكورة في المدوّنة التي اعتمدنا عليها، نجد لعبة الكورة، كما ينطقها أهل الأندلس، والكرة من اللّعب القديمة عند العرب، ولعبة الكرة

والصولجان، التي تُمارس بعضا على ظهور الجياد، والزُّحلوقة، وهي الأرجوحة التي يلعب بها الأطفال.

4- الحرف والصناعات: مارس الأندلسيون حرفاً متنوّعة، وازدهرت الصناعة لتوفّر المواد الأولية النباتية، كالقمح، والقطن، والكتّان، والتوت الذي تتغذى على أوراقه دودة القزّ، والمواد الحيوانية، وذلك بالاعتناء بتربية الماشية. وعُرف عن الأندلسيين إتقان صناعاتهم، وغلبة الصناعة اليدوية لديهم، كما هو شائع في تلك العصور، وبقيت السلع تُصنع في البيوت أو المحلات، والحوانيت، فارتبطت بالطبقة العامة، أو الشعبية، وتكوّنت بذلك طوائف حرفية، إذ نجد منها الأبار، وهو صانع الإبر، والسكّان هو صانع السكاكين، وعرفوا مهنة الحدادة، التي كانت شائعة في المجتمعات القديمة، إلى جانب مهنة الإسكاف وهي تعني عند الأندلسيين الخراز فقط، أمّا الإسكاف عند المشاركة فهو كلّ صانع مهما كان.

ومن الصناعات الشائعة في الأندلس ما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين، نجد صناعة الغزل، والنسيج، والحياكة، ومن أدواتها نجد: أو «المَنُول»²⁴، والنزق وهو ذلك الجزء من الآلة الذي يسمّى في العربية الفصيحة المَنسَق، لأنّ النساج يُنسَقُ بها اللّحمة بين سدى الثوب، والقيقة وهي فلكة المِغزَل.

وتشتهر بعض المدن الإسلامية بصناعة أنواع من الأقمشة، نذكر على سبيل المثال مدينة ألبيرية، ومنه يقال: كتان لبيري، ولكن لا تصنع كل الأثواب في الأندلس، فهناك ما كان يجلب إليها من بلاد المشرق، فقد ذكر الزبيدي على سبيل المثال أنّ من الأثواب الشائعة ثوباً يسمى «المَرَوِي»²⁵ وذكر أنّه منسوب إلى «مَرَو» التي تقع في خراسان.

ومن الحرف الشائعة أيضاً، نجد «القُسْطَلَة»²⁶ وهي حرفة الشخص الذي ينقد الدراهم ويميز جيدها من زائفها، والمشاركة يسمونه القُسْطَار بالراء، وهذه من المفردات الشامية التي دخلت الأندلس، وقد يسمّى صاحب هذه المهنة صرّافاً، ووهناك فئة أخرى كانت تشغل في الأرحية أو المطاحن ويُسمّى المقّاس. ومن الحرف أو الصناعات الخفيفة صناعة الشاشيات، ويسمون صانعها شَوَاشاً، وتعتبر من الحرف الأكثر شيوعاً في الأندلس.

وقد راجت في الأندلس تجارة غير إنسانية، تتمثل في تجارة الرقيق، ويسمّى صاحبها «النَّخَّاس»²⁷، وكانت قوافل النخاسين – وأغلبهم من اليهود - تأتي بهذه البضاعة البشرية بكميات كبيرة، من أوروبا، وآسيا، وإفريقيا.

وهناك من ينحصر عمله في بيع بعض الأدوات فقط، ويذكر الزبيدي على سبيل المثال: «الحطاب»²⁸ لبائع الحطب، إذ تلجأ العائلات الفقيرة إلى ممارسة هذه المهنة لسد قوت يومها، وذلك بالاحتطاب للعائلات الميسورة.

وهناك من لم يكن له عمل يقتات به، فمارس الكدية وسؤال الناس، والرجل الذي يفعل ذلك هو «الشحات»²⁹ في لغتهم. وتجدر الإشارة إلى أنّ عادة التسوّل من العادات المستقبحة عند الأندلسيين، والتي انتشرت بكثرة على الطرقات، ممّا يصوّر لنا ظاهرة الفقر، التي مسّت فئات كثيرة من المجتمع الأندلسي، حيث يعلّق المقرّي على هذه العادة، فيقول: «وأما طريقة الفقراء (...) التي تكسل عن الكد وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم (...) وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه، فضلاً عن أن لا يتصدّقوا عليه بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر»³⁰. ونستنتج من هذا القول، أنّ عامّة الأندلسيين يقدّسون العمل.

وهناك بعد ذلك مفردات تخبرنا عن صناعات أخرى كانت معروفة في المجتمع الأندلسي، مثل صناعة الحُصُر التي تتخذ من نبات يسمى الدّيس، وقد يصنعون الحُصُر وغيرها من مادة نباتية أخرى يسمونها «الفلق»³¹، و الشيء نفسه نجده عند الأمازيغ، إذ يتخذون هذه المادة لصناعة الزنبيل، والحصر، والققف، والسجّادات.

وانتشرت في مدن الأندلس الأسواق الشعبية كسوق العطارين أو «سماط» العطارين كما يذكر ابن هشام³²، وعني الأندلسيون بإنشاء الأسواق الفسيحة ذات الحوانيت المتصلة في كلّ مدينة، وقرية، وكانت هذه الأسواق عامرة بالمنتجات الزراعية، والحيوانية، والصناعية، وكانت إمّا محلية، أو مجلوبة من الخارج. وتخضع الأسواق في الأندلس للمراقبة من قبل المُحتسِب، الذي يسعى إلى منع الغش في كلّ صنعة، أو سلعة معروضة في هذه الأسواق، وهذا ما يعطينا صورة عن الحركة التجارية في الأندلس، وتعدّد نشاط الأسواق فيها.

ومارس الأندلسيون الفلاحة، حسب المفردات الواردة في نصوص كتب التصويب اللّغوي التي اعتمدنا عليها، إذ وردت فيها أسماء الأدوات المستعملة في هذا المجال، ونذكر على سبيل المثال: الشّاقور، والمنقاش، والقادوم، والصّاع، والسكّة، والمِقْرنة وهي الأداة التي تجعل على الثورين ليحرث بها.

ولم ترد في نصوص مدوّنتنا الوظائف العليا، سوى وظيفتين وهما: وظيفة «الشرطي»³³، وهو موظف مكلف بالأمن في المدينة يعرف باسم (Praetor urbanos)، فحلّ محلّه صاحب الشرطة، وقد انتقل هذا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس في صور مختلفة مثل (Sahba seorta) أو (Sachbascorta)، وتسمّى أحياناً صاحب الليل³⁴؛ وكان أصحاب الشرطة يحملون آلة من السلاح تسمّى الطبرزين وهي عبارة عن سكّين طويل، وكانوا يقومون بالطوف أو العسس طول الليل إلى صلاة الفجر³⁵. ومن الطريف أنّ العرب أخذوا نظام الشرطة ولفظها في المشرق من البزنطيين (Securitas) ثمّ حملوا معهم هذه الوظيفة بلفظها إلى الأندلس³⁶. والوظيفة الثانية هي الحُسبة، ويعتبر المحتسِب الممثل الأكبر للمجتمع؛ إذ له الكلمة العليا، ويشرف على الأفراد ويدعوهم إلى إتباع الحق. وكان المحتسِبون يُختارون في الغالب من بين القضاة³⁷، وكانت

من بين مهامه مراقبة دور القمر، والأسواق.

5 - البيت الأندلسي: بنى الأندلسيون المنازل والقصور، لتكون مقراً لحياتهم وعملهم، وراحتهم، وفي علاقاتهم الاجتماعية الأخرى، وتفننت الطبقات العليا من المجتمع الأندلسي في تشييد المباني والقصور الباذخة، التي تلائم ذوقهم المترف. ويمكننا تقديم صورة للبيت الأندلسي من خلال المفردات الواردة في مدونتنا، إذ يتخذ في بنائه الأجر، أو اللأجور، والتسمية نفسها في الأمازيغية (اللأجور) والذي يصنعونه من طين مطبوخ، وتُعلَى سقوف البيوت بالقراميد، وتُلاط بالجبس أو الجير.

ومن أجزاء البيت الأندلسي في العادة مدخل يؤدي إلى الفناء يسمونه «الأسطوان»³⁸، ويتصل بهذا الأخير قاعة كبيرة، وغرف صغيرة غير غاصة، إذ لا نجد فيها سوى الثخوت التي تحفظ فيها الملابس. والزرداب أو السرداب في الفصحى، وهو حفرة تحت الأرض، ومهياً بوسائل التهوية بواسطة فتحة كبيرة نحو الشمال، يأتي منها الهواء في موسم الحرّ، كما يُجعل فيه الماء في الصيف ليحافظ على برودته، ويطلق أيضاً عند المولدين على حفرة تحت الأرض للنفاد منه إلى الخارج كما يصنع في الحصون. وقد نجد في البيت قبوا، ويجعلون في الحائط خوخة وهي الكوة النافذة، أو غير نافذة. ويُخصّص الأندلسيون مكاناً للطعام، يسمّى الهري، والتسمية نفسها عند الأمازيغ (أهري)، كما نجد تحت الأرض حفرة يُطمر فيها الطعام، تُدعى المَطْمَر، وهذه العادة شائعة عند الأمازيغ أيضاً. ويحفرون حفرة مثل البيت يبني حولها فيحبس فيها الجداء والعنوق عن أمهاتها وتسمى الزرب، ويسمى كذلك في الأمازيغية (زُرف). ومن مرافق البيت الضرورية بيت الغائط، والمبضّة وهي بيت الوضوء. وقد يشمل البيت على البئر، وله آلة لاستخراج الماء يسمونها السّانية³⁹، إلى جانب الدّولاب، والدّالية، والغرافة.

ومن وسائل الإنارة التي كانت مستخدمة في الأندلس نجد: «القناديل» التي تضيء بفتائل⁴⁰، والشمع الذي كانوا يطلقون عليه القير، وقد عاب ابن هشام والزبيدي على الأندلسيين استعمالهم لهذا الاسم الأخير بدل الشمع أو الموم.

ومن المفروشات الشائعة في الأندلس: نجد الحُصْر التي تُصنع من الدّيس، ، والحَنْبِل وهو يساط يتخذ من الصوف، والتسمية نفسها في الأمازيغية (إْحَنْبِل)، والزربية، واللحاف وهو الغطاء الذي يكون على السرير، وهي من الصناعات الرائجة في الأندلس.

6- الغذاء: عرف الأندلسيون ألواناً راقية من الأطعمة والأشربة، وقد صنّفت بعض الكتب في هذا الموضوع تدلّ على تميّز غذاء الأندلسيين، وتفرّده بفنون المأكولات والمشروبات، عكس ما عرف عند العرب قبل الإسلام؛ إذ كان الطعام يقتصر على الألبان ومنتجاتها أو ما يستخرج منها كالزبد والسمن، والجبن، وعلى التمر، واللحوم، والحبوب، وخبز الشعير. وكان من الطبيعي أن تكون لحومهم وألبانهم من الحيوانات، التي تعيش بينهم وأشهرها الإبل. فلما

جاء الإسلام وفتح العرب العراق وفارس والأندلس دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ووقفوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها. وقد تنوّعت ألوان الأطعمة في المجتمع الإسلامي، واختلفت من بلد إلى بلد آخر، ومن طائفة اجتماعية إلى طائفة أخرى، وهي في تنوّعها واختلافها تعطي صورة طيبة لامتزاج العناصر المتباينة. وكانت معظم المأكولات تُهيأ داخل البيوت؛ إذ تقوم ربة البيت في الطبقة العامّة بإعداد الطعام بنفسها، بينما تستخدم الغنيات بعض الطاهيات المحترفات، أما في حالات إعداد الولائم، والمناسبات، فيستخدمون طبّاخين متخصصين لهم حوانيت في الأسواق.

فمن الأطعمة المتخذة من لحوم الحيوان نجد «المركاس»⁴¹، وننطقه في الأمازيغية بالزاي، أي (المرچاز) ويسمى في الفرنسية (Saucisson) وهي النقانق، في الفصحى، وكان يُصنع من لحم الضأن، وهريسة الشحم. كما شاعت عند الأندلسيين ظاهرة تجفيف اللحم الذي يسمّى القديد والتسمية نفسها عند الأمازيغ (أَقْدِيدْ). وكانت اللحوم حكرًا على العائلات ذات الدخل الكبير، ويُشترى في الأسواق أين يُخصّص مكان للجزارين، ويحرص الأندلسيون على شرائه بدقّة فائقة، وتحت مراقبة المحتسب؛ لأنّ الغش هو أحد وسائل الباعة مثل البانت مع الطري.

ومن الأطعمة المتخذة انطلاقاً من الحبوب نجد: الهريس وهو الحب المطبوخ بعد الهرس والخبز المحمّص ويتمّ تحميصه على الرماد الحار.

وتزدهي الأندلس بأنواع كثيرة من الفواكه: العنب ومنه نوع يسمى أصابع السودان؛ وهو عنب أسود طويل كأنه البلوط. وقد يصنعون من العنب عصيراً يسمى المصطار، والرمّان وخاصة النوع الذي يسمى البُلّسي ومنه - أيضاً - نوع جيد يسمونه السُقري، قال ابن هشام: منسوب إلى سقر بن عبد الله وكان من رجال عبد الرحمن الداخل وقد دخل إلى الأندلس في عهده من الشام⁴²، إلى جانب البطيخ، والدّلاع، والمشمش... إلخ.

ومن النباتات، والتوابل المستعملة في إعداد الطعام نجد: الليمون، والكرفص، والقسبر والخرشف، والقرع، والباذنجان، والبسباس، والحمص، واللوبياء، والننع، والكرويا، والقرفة، والكمون... إلخ.

واشتهر الأندلسيون بصنع الحلويات أشهرها: الزَّرْبِيَّة وهي المعروفة في المشرق بـ«الزلابية»⁴³، التي تتخذ من الدقيق، والعسل. و ممّا تقدّم نستنتج أنّ الأندلسيين قد عرفوا ألواناً مختلفة من الأطعمة، وأجادوا في طبخها.

7- المكونات البشرية للمجتمع الأندلسي: تعايش في الأندلس أجناس بشرية مختلفة؛ إذ نجد الفاتحين الذين يُشكّلون عنصراً هاماً ومحورياً في المجتمع الأندلسي، لأنهم كانوا قوّة بشرية هائلة تكونت عن طريق الهجرات المتتالية، أمّا القوّة الثانية فتتمثّل في البربر المهاجرين إلى الأندلس، وتتمثّل أسباب هجرتهم المستمرة إليها: رغبتهم في الجهاد ونشر الإسلام؛ حيث استقرّوا في

المناطق الشمالية المواجهة للنصارى؛ وهذا ما يؤكد نيّة الجهاد، ثمّ التطلّع إلى تحسين أوضاعهم المادية نظراً لغنى الأندلس، وكثرة ثرواتها، وقرب موقعها بالنسبة للمغرب، وسهولة العبور إليها. وبذلك تمكّن البربر من تشكيل كيانات سياسية، وامتحنوا الفلاحة، واتخذوا المناطق الجبلية الوعرة مسكناً لهم، وأتقنوا العربية، وانصهروا في المجتمع الأندلسي انصهاراً تاماً⁴⁴. ولعب البربر دوراً هاماً في حركة توجيه الحدث الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والثقافي في الأندلس، فقد نشروا الإسلام، وشاركوا في الحياة السياسية.

كما شكّل النصارى جمهرة سكان البلاد في بداية الفتح الإسلامي⁴⁵، ثمّ اختلطوا فيما بعد بالمسلمين، واتخذوا العربية لساناً لهم، واعتنق بعضهم الإسلام، وقد عومل هؤلاء المستعربين منذ الفتح معاملة طيبة، اتسمت بالتسامح، فتمتّعوا بحريّة كبيرة في ممارسة شعائرهم الدينية، واحتفظوا بقوانينهم القوطية تحت سلطة الأساقفة، وأمراء النصارى، ودفعوا الجزية وترأسهم «القومس»⁴⁶ (Gomés)، وهو رئيس النصارى، وكان يُعيّن من قبل السلطات الإسلامية، وانحصرت مهمّته في المسائل الدينية الخاصّة بالنصارى، ومثّل هذا الرئيس حلقة اتصال بينهم وبين السلطة الإسلامية.

يعتبر اليهود الطائفة الثانية من أهل الدّمة، وشكّلوا فئة هامّة، وفاعلة في المجتمع الأندلسي. وكانت وضعيتهم في إسبانيا القوطية سيئة للغاية، ولقوا كلّ أشكال الإهانة والملاحقة على أيدي القوط، وحُرّموا من ممارسة شعائرهم الدينية، ولهذا يرجع أغلب الباحثين هذا الاضطهاد سبباً في اتصالهم بالمسلمين، ومساعدتهم على فتح الأندلس⁴⁷، فكان المسلمون يمثلون بالنسبة لليهود المخلص الوحيد لأوضاعهم المزريّة. وأقام اليهود في معظم مدن الأندلس على شكل تجمّعات منعزلة عن المسلمين في الأرباض الخاصّة بهم، وكانت لهم مؤسسات إدارية، وقضائية تقوم بحلّ المشاكل الداخلية، والمنازعات، وقد احتُرمت شعائرهم الدينية، فأدخلوهم في دمتهم مقابل دفع الجزية والخراج، وعاملوهم بتسامح يدعو للإعجاب.

ومن الفئات الاجتماعية التي أشارت إليها النصوص: فئة الخدم، وينص ابن هشام على أنّ الأندلسيين يطلقون لفظ «الخادم»⁴⁸ على الذكر والأنثى. وتمثّلت مهمّتهم في الخدمة المنزلية: الطبخ، والعجين، والكنس، وجلب الماء، وغسل الثياب، والغزل، والنسيج، وخدمة الدوابّ، والقيام بشؤونها من علف ورعاية، إلى جانب جمع الحطب للتدفئة، والتسوّق لقضاء حاجات الأسرة التي يخدمها.

وظهرت طائفة متميّزة في المجتمع الأندلسي، لعبت دوراً سياسياً واجتماعياً هاماً، تمثّلت في فئة «الصفالية»⁴⁹، وهي أمم كثيرة يرجع أصلهم إلى إحدى القبائل التي تسكن القسم الشرقي من أوروبا، واسمهم بالفرنسية (Slave)، وهم عند الأندلسيين الخصيان، والأسرى من الأجناس الصفالية، والسلافية، إلّا أنّ هذه التسمية أطلقت بمرور الزمن على الأجانب الذين خدموا في البطانة، والقصر. وانقسم الصفالية إلى فريقين: فحول وخصيان، وكانت عمليّة الخصي

يقوم بها تجار يهود، وهذا ما أكدّه ابن حوقل الذي زار الأندلس في القرن الرابع الهجري، ولكن هناك من نفى احتكار اليهود للخصي، بل أنّ المسلمين كذلك مارسوا هذا الفعل المجافي للإنسانية، وهذا ما أكدّه المقري قائلًا: «وقد تعلم الخصي قوم من المسلمين هناك، فصاروا يخصون ويستحلون المثلة»⁵⁰، وينشأ صقالبة الأندلس تنشئة خاصّة، فيتعلّمون العربية، ويتلقون تربية تثقيفية تلائم حياتهم داخل القصر، وبحكم مكانتهم الاجتماعية، ووظيفتهم داخل القصر، اهتم الصقالبة بمظهرهم الخارجي.

8- العادات والمعتقدات الشعبية: إنّ التركيبة البشرية المتنوّعة التي تكوّن المجتمع الأندلسي، أدّت إلى اختلاف في مناحي حياتها الاجتماعية، وهذا ما يعطينا صورة عن تباين العادات والتقاليد التي أمنت بها العناصر المشكلة لهذا المجتمع، ومن العادات الشائعة في الأندلس، نجد عادة تعليق جوهر على جبهة المولود ويسمون ذلك «مُكْتُو»⁵¹، ومن عادات الأندلسيين - أيضاً - صنع الطعام عند نبات الأسنان للأطفال، ويسمّى الذنتيلة أو الذنتينة، والعرب تطلق عليه السّنتبة، وهي عادة شائعة عندنا أيضاً، وكذا عند حلق شعر الطفل لأوّل مرّة، وهذا ما يرجح احتمال نقل البربر هذه العادة إلى الأندلس. كما يضع الأندلسيون خيطاً في الإصبع، ليتذكّر حاجته، يُسمّى الرّتمّة، وهي عادة شائعة عند عجائزنا، أمّا الرّتم، فهي من عادات العرب إذا أراد الزوج سفراً، واتهم زوجته بالخيانة، عقد في الرّتم عقده، فإن وجدها عند رجوعه - بحالها - علم أنّها لم تخنه، وإن وجدها قد انحلت، تيقّن أنّها قد خانت، ويسمونها الرّتيمة.

9- الموسيقى والغناء: اشتهر الأندلسيون بالفنون الموسيقية المتميزة، ولا يمكن أن نغفل دور زرياب الذي نقل إلى الأندلس الموسيقى الشرقية. وكان الغناء مظهراً للمتعة والترويح عن النفس، وفي هذا دلالة على ما تركته الحياة المترفة من آثار في رقي أذواق الناس، وتستخدم في الطرب الأندلسي آلات كثيرة، ويعتبر العود سيّد هذه الآلات في مجالس أنسهم. ولكن في المدونة التي اعتمدنا عليها لم ترد إلا مفردات قليلة جداً في هذا الموضوع، نذكر منها: «الرّنامي» وهو اسم يطلقونه على المزمّار، المنسوب إلى زامر يقال له: رُنام⁵²، وهو مزمّار على شكل قصبه منحوتة الجانبين من الخشب، جوفاء، من غير تدوير، مزوّدة بفتحات ينفخ فيه بقصبه صغيرة، وهو نوعان: ذو صوت غليظ، وآخر رقيق، والمزهر الذي يطلقونه على بعض الملاحى، وفي الفصحى يعني عود الغناء، وهو آلة وترية استمتع الأندلسيون بأنغامها، وهي أداة الطرب الشائعة بين يدي القيان المبدعات.

10- الصحة والمرض: انتشرت في المجتمع الأندلسي أمراض كثيرة، منها ما يصيب الإنسان، وأخرى يعاني منها الحيوان. ويمكن تقسيم الأمراض الواردة في نصوص مدونتنا إلى قسمين :

- أ الأمراض غير المعدية: ومنها: «الظفرة» وهو داء يعرض للعين من لحم يعلو الحدقة» كما يقول الزبيدي⁵³، والقرس، والفالج، والعمش وهو داء يصيب جوف العين، والحصبة، والبواسير، والقلاع، وهو داء يصيب لثة الفم.

- ب الأمراض المعدية: ومنها السلُّ والزُّكام. هذا فضلاً عن بعض الأمراض الأخرى التي كان يُكتفى بالإشارة إليها باسم «داء» أو ما أشبه.

ومن أمراض الحيوانات التي أوردتها الكتب التي اعتمدنا عليها نجد: الخُنَاقية لداء يصيب الناس والدواب في الحلق، وقد يأخذ الطير في رؤوسها كما يقول ابن هشام⁵⁴، والتسمية نفسها في الأمازيغية (خُنَقْتْ)، والقوائم وهو داء يصيب قوائم الدواب، يتمثل في قسوحة أرساغها... الخ

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المصنّفات، لا تكتفي بذكر الأمراض، وإنما تقارن بينها، - أحياناً - وتذكر الفروق الموجودة بينها، كقول ابن مكي: «الصُّدَاع»⁵⁵ يكون في الرأس خاصة، أما «الرُّدَاغ» فيشمل سائر الجسد.

أما الأوبية التي استخدمها الأندلسيون في علاج الأمراض، فكانت - في معظم الأحيان - مستخلصة من الأعشاب، والنباتات والحشائش، والواردة في كتب المفردات الطبية، إلى جانب بعض الأدوات أو المواد المستعملة في التنظيف، والمحافظة على الصحة العامة، وقد ذكرت كتب التصويب اللغوي في شأنها الكثير من المفردات النباتية وغيرها من المركبات، ونذكر على سبيل المثال كلمة «العقاقير»⁵⁶ وهي اسم لكل ما يتداوى به من النبات والشجر، كالوشق وهو دواء كالصمغ، ويسمى في الأمازيغية (لُوشِقْ)، إلى جانب المُرَقْد وهو شراب للنوم، كما هو واضح من تسميته، والشَّب، والحلّيت، والتسمية نفسها - تقريباً - في الأمازيغية (لُحْنِتْ)، وذوقه مر كالعقم... الخ.

وهناك أمراض كثيرة كانت تعالج بطرق أخرى دون تناول الدواء، كداء الأضراس الذي يعالج بالقلع بالة تسمى كُلبَتَيْن أو الكلايب، وأمراض تعالج بالكي بالة حديدية تسمى المكوى، وأخرى تعالج بالجراحة، ومن أدواتهم المستعملة: المَشْرَطَة، كما تعالج الجروح بدهن هو المرهم، ويعالج الكسر بالجبر ويصنعون لمداواته الملزم.

واستخدم الأندلسيون - من باب النظافة، وحفظ الصحة - الحمامات. وتعتبر من المنشآت أو الهياكل التي تزخر بها الأندلس، لكون الاستحمام من العادات الراسخة في المجتمع الأندلسي، وهو ما يؤكدّه المقرّي: «وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون، وما يفرشون وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده قوت يومه فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل ثيابه»⁵⁷. وكان الحمام مركزاً للاجتماعات، ومجالس الأُنس، واللّهو، والغناء، ولم يكن حكرًا على الرجال، بل أنّ النساء يجدن راحة النفس، وتغيير الجو، والتمتع بحرية نسبية.

ويتألف الحمام الأندلسي - بوجه عام - من مدخل يؤدي إلى ثلاث أو أربع غرف مقببة، وتتصل ببعضها البعض عن طريق فتحات، أو أبواب، وله ملحقات كالموقد، والمرحاض، وكانت الغرفة الأولى تسمى «المسلخ»⁵⁸، وهي خاصة بخلع الثياب، ثم الغرفة الوسطى، التي تعتبر من أهم أجزاء الحمام، حيث نجد في أعلاها فتحات تُدخل الضوء، وينتهي الحمام بالبيت الساخن ذو درجة الحرارة المعتبرة، وعلى

جوانبه أحواض تصب فيها صنابير المياه الساخنة، والباردة⁵⁹، وكانت الحمامات الأندلسية روعة في الزخرفة، والجمال، بقببها المضيئة، ونقوشها الرائعة.

واستخدم الأندلسيون مواد مختلفة في النظافة نذكر على سبيل المثال: الغاسول وهو الخطمي في الفصيح، والنشفة وهي الحجر التي يُنقى بها الوسخ في الحمامات، إلى جانب الشنان المستعمل في غسل اليدين.

وتشتغل في الحمام فئات كثيرة، منها: الحكاك، والحجام، والطيب⁶⁰...، وقد حدّدت لهم آداب وجب الالتزام بها داخل الحمام، ولهم ألبسة خاصة. كما يقصد الأندلسيون مجتمعات الماء الحار، التي تسمى الواحدة منها حمامة، وهي نافعة جداً للكثير من الأمراض الجلدية، والمفصلية.

وعلى هذا النحو نرى أن للحمام أهمية كبيرة في حياتهم الاجتماعية؛ لأنّ عادة الاستحمام مرتبطة بالإسلام، الذي يدعو إلى النظافة، والطهارة، لذا كانت الحمامات عادةً بالقرب من المساجد، حتى يتيسّر للمسلمين التطهر قبل دخولها.

11- التعليم ووسائله: اهتمّ الأندلسيون اهتماماً كبيراً بأبنائهم وذلك بتربيتهم، وتعليمهم، وإعطائهم فرصة اكتشاف المعارف، والآداب، وهذا ما يعبر عن تقدسهم للعلم المرتبط بالسموّ الإنساني. وقد ساعدهم على تحقيق ذلك غيرة بعض الأمراء، والسلاطين على نشر العلم، وإنشاء المدارس؛ إذ يكفي أن نذكر في هذا المقام ما قام به المستنصر الذي أنشأ سنة (356هـ) سبعاً وعشرين مدرسة في قرطبة، فوق ما كان قائماً منها أصلاً. كما وفر لها المعلمين، وأغدق عليهم المال من خلال المرتبات الخيالية، ليقوموا بتعليم أبناء الضعفاء، والمساكين، ممّا يدلّ على شيوع التعليم في الأندلس في كلّ شبرٍ منها.

ويخبرنا ابن حزم عن الرغبة الشديدة لدى الأندلسيين لنشر العلم، وتشجيعه، أنّ الجوّاري داخل القصور، وبيوت كبار القوم، كنّ يقمن بمهمة التعليم لأبنائهم في المرحلة الأولى⁶¹. ويمكن حصر أماكن التعليم في الأندلس في المنزل الذي يتجلى دوره في التكوين العقلي للطفل، حيث نجد الدور الأكبر يقوم به الوالدان في تلقين، وتعليم أبنائهم بعض الآيات القرآنية، والكتابة، ويمكن اعتبار الوالد المعلم الأول في حياة طفله⁶²، ثم يلي ذلك الكتاب، أو الكتاتيب.

أسّس العرب في الأندلس «الكتّاب»⁶³، لتعليم الصبيان اللّغة العربية وآدابها، ومبادئ الدّين الإسلامي، على غرار نظام الكتاتيب في المشرق العربي، واتّخذوا المؤدّبين لتعليم أولاد الضعفاء، والمساكين. وقد حرص الأندلسيون على أن يكون القرآن الكريم الأساس المتين في تعليم أبنائهم، وربطه بتعلّم اللّغة العربية، والشّعر، وأشار ابن خلدون إلى هذا المنهج المتبع لديهم في التعليم قائلاً: «وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتابة وجعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه بل يخلطون في تعليمهم الولدان رواية الشّعر، والترسل وأخذهم بقوانين العربيّة وحفظها، وتجربة الخط والكتابة (...) إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشّبيبة وقد شدّ بعض الشيء في العربيّة

والشعر وأبصرهما، وبرز في الخطّ والكتابة وتعلّق بأذيال العلم على الجملة»⁶⁴. وكان لهذا المنهج الأثر البالغ في ترسيخ المعارف المتنوّعة لديهم، وكان الشّعْر والأدب واللغة العربيّة أحد مكوّنات النشوء المعرفي عند المتعلّم في المرحلة الأولى، وتكوين ملكته.

وفي المرحلة الثانية يتلقّى المتعلّم تعليماً أوسع، وأشمل، وأكثر تركيزاً، ويصبح بإمكانه أن يتلقّى شروح القرآن وتفسيره، وقراءته، وكذا الحديث، والآراء الفقهية، وما إلى ذلك من علوم الدين، واللغة.

ويقوم المتعلّم في المرحلة الثالثة بالرحلة، والانتقال من مكان إلى آخر لغرض التّركيز، والتخصّص ما أمكن في علم من العلوم، كما يتعمّق في هذه المرحلة في العلوم الدينية، واللسانية، والعقلية.

أمّا طرق التعليم، فقد اعتمد الأندلسيون طرقاً عديدة في هذا الشأن منها: التلقين، والإملاء، والمحاورة، والحفظ، والمناظرة⁶⁵. وقد حدّد ابن عبدون القدر الضروري من التعليم، وهو أن يُعلّم الطفل ألفاظ القرآن الكريم، وجودة الخط، والهجاء، وأمّا من يبيع ويشترى، فعليه معرفة الحساب، كما أمر بضرورة منع المعلمين من حضور الولائم، والجنائز، والشهادات، إلّا في أيّام العطل، حتّى يتسنى لهم التفرّغ لمهمة التعليم، وطالب بضرورة تقليص عدد التلاميذ في القسم، وذلك بقوله: «فإنّه لا يقوم الواحد بخدمة الجماعة ولا سيّما التّاديب»⁶⁶.

ومن الوسائل التعليمية التي استخدمها الأندلسيون، نجد: المحبرة، والقرطاس، واللّوح، والدّواة، والكرّاسة، والبرنامج، وهي عبارة عن ألواح يُكتب فيها الحساب، ويستعملها التّجار - أيضاً - وتسمى الخطوط التي يكتبها الصبيان ويعرضونها على المؤدّب لفظ التّحاسين، أو التناشير... إلخ.

والحقيقة التي لا يمكن لأحد أن ينكرها، والتي تُحسب للمسلمين في الأندلس، أنّ كلّ شخص -تقريباً- كان يعرف القراءة، والكتابة، في حين كانت أوروبا لا تمتلك سوى المبادئ الأولى للمعرفة؛ إذ ظلّ التعليم قائماً بمؤسّساته، وأدواته، ممّا يدلّ على مدى تحضر المجتمع الأندلسي.

خاتمة:

وبعد محاولة استنطاق، واستثمار المفردات الواردة في كتب التصوير اللّغوي تمكّنا من الوصول إلى معلومات دقيقة تعلّقت بالحياة الاجتماعية والثقافية في الأندلس؛ إذ تصوّر مفردات هذه الكتب الحياة اليومية البسيطة جزئياتها، من حيث العادات والتقاليد، والآلات والأدوات، وتصف كلّ ما يؤكل ويُسْرَب ويُلْبَس، وتُخْبِرنا عن كلّ ما يتعلّق بالمهن والحرف، والصناعات باسمه الخاص، وأمراض الإنسان، أو الحيوان... وكلّما نمت حضارة إلا ونمت معها اللغة. ونستنتج ممّا تقدّم ضرورة الاهتمام بدراسة اللغة في سياقها الاجتماعي، وهو ما ذهب إليه النّصراوي⁶⁷، الذي ألحّ على العناية بوظيفة اللغة في المجتمع؛ لأنّ اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم فحسب، بل هي جزء من نشاط الإنسان

وسلوكة، وأنّ مفردات اللغة في أيّ مجتمع تعكس في تصنيفها للأشياء النشاط العملي للجماعة. إنّ اللغة هي لسان الحياة في كلّ جوانبها.

الهوامش:

• أستاذة مساعدة أ، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة مولود معمري بتيزي وزو .

- 1 - عبد العلي الودغيري، دراسات معجمية: نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى، ص 73.
- 2 - رشيدة عبد الحميد اللقاني، ألفاظ الحياة الاجتماعية في كتابات الجاحظ: دراسة في التطور الدلالي للعربية، ص 10.
- 3 - عبد العلي الودغيري، دراسات معجمية، ص 74.
- 4 - المرجع نفسه، ص 76.
- 5 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام، المدخل إلى تقويم اللسان، وتعليم البيان، ص 288.
- 6 - أبو حفص عمر بن خلف بن مكي، تنقيف اللسان وتلقيح الجنان، ص 179.
- 7 - المرجع نفسه، ص 336.
- 8 - المرجع نفسه، ص 43.
- 9 - المرجع نفسه، ص 340.
- 10 - ابن مكي، تنقيف اللسان، ص 485.
- 11 - المرجع نفسه، ص 273.
- 12 - المرجع نفسه، ص 507. ومعجم الوسيط، ج2، ص 797.
- 13 - ابن هشام، المدخل إلى تقويم اللسان، ص 509.
- 14 - المرجع نفسه، ص 159.
- 15 - المرجع نفسه، ص 230.
- 16 - الزبيدي، لحن العوام، ص 141.
- 17 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 63.
- 18 - المرجع نفسه، ص 65. ورينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج4، ص 268.
- 19 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 90.
- 20 - المرجع نفسه، ص 96.
- 21 - الزبيدي، المرجع نفسه، ص 18.
- 22 - ابن مكي، المرجع نفسه، ص 172.
- 23 - ينظر: محمد عبد الوهاب خلاص، قرطبة الإسلامية، ص 309.
- 24 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 73.
- 25 - الزبيدي، المرجع نفسه، ص 152، وابن هشام، المرجع نفسه، ص 236.
- 26 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 65.
- 27 - ابن مكي، تنقيف اللسان، ص 63 - 64، وابن هشام، المرجع نفسه، ص 264.
- 28 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 363.
- 29 - المرجع نفسه، ص 86.

- 30 - المقرّي، نفح الطيّب، ج1، ص 220.
- 31 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 286.
- 32 - المرجع نفسه، ص 311.
- 33 - المرجع نفسه، ص 186.
- 34 - دوزي، تكملة المعاجم العربية، ج6، ص 423.
- 35 - آدم ميتز، الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع، ص 701.
- 36 - حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 464.
- 37 - آدم ميتز، المرجع نفسه، ص ص 700-701.
- 38 - الزبيدي، المرجع نفسه، ص 227، وابن هشام، المرجع نفسه، ص 84.
- 39 - الزبيدي، المرجع نفسه، ص 291.
- 40 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 276.
- 41 - المرجع نفسه، ص 233.
- 42 - المرجع نفسه، ص 246.
- 43 - المرجع نفسه، ص 286.
- 44 - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 125.
- 45 - عبادة كحيلة، تاريخ النصاري في الأندلس، ص 80.
- 46 - الزبيدي، لحن العوام، ص 288، وابن هشام، المدخل إلى تقويم اللسان، ص 414.
- 47 - ينظر: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم، ص 133.
- 48 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 322، وينظر: عبد الإله بنمليح، ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي، ص ص 28-32.
- 49 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 156. وينظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص 106.
- 50 - المقرّي، المرجع نفسه، ج 1، ص 145.
- 51 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 429.
- 52 - ابن مكي، تنقيف اللسان، ص 71، وابن هشام، المرجع نفسه، ص 432. وينظر: ابن خلدون، المقدّمة، ص ص 758.
- 53 - الزبيدي، المرجع نفسه، ص 282.
- 54 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص 290.
- 55 - ابن مكي، المرجع نفسه، ص 269.
- 56 - ابن هشام، المرجع نفسه، ص ص 188-189.
- 57 - المقرّي، المرجع نفسه، ج1، ص 223.
- 58 - الزبيدي، المرجع نفسه، ص 270، وابن هشام، المرجع نفسه، ص 240.
- 59 - السيد عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص 212.
- 60 - ينظر: ابن عبدون ثلاث رسائل أندلسية، ص 23.
- 61 - ينظر: ابن حزم، طوق الحمامة، ص 50.
- 62 - ينظر: محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص 215.
- 63 - ابن هشام، المدخل إلى تقويم اللسان، ص 247.
- 64 - ابن خلدون، المقدّمة، ص ص 538-539.
- 65 - ينظر: كمال السيد أبو مصطفى، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، ص 204.
- 66 - ابن عبدون، المرجع نفسه، ص 25.
- 67 - الحبيب النصراوي، الجاحظ معجميًا: بحث في المستويات اللغوية، ط1. تونس: 2008، مركز النشر الجامعي، ص 160.

المصادر والمراجع

- آدم ميتز، الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، تر: محمد أبو ريذة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط3، القاهرة، 1957.
- ابن حزم (محمد بن علي بن أحمد بن سعيد)، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تح: محمد يوسف الشيخ، ومحمد ويوسف الشيخ، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت، 2004.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن أبو زيد)، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، ط3، بيروت، 1967.
- ابن عبدون (الجرسيقي)، عاش في القرن السادس الهجري، رسالة في القضاء والحسبة، نشر وتعليق: ليفي بروفنسال، ضمن الجريدة الآسيوية، أفريل - جوان 1934.
- ابن مكي (أبو حفص عمر بن خلف)، تنقيف اللسان، وتلقيح الجنان، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.
- ابن هشام (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، المدخل إلى تقويم اللسان، وتعليم البيان، تح: حاتم صالح الضامن، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 2003.
- أبو مصطفى كمال السيّد، بحوث في التاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، د. ط، الإسكندرية، 1983.
- الحبيب النصراري، الجاحظ معجماً: بحث في المستويات اللغوية، ط1، مركز النشر الجامعي، تونس، 2008.
- حسن أحمد النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، دار الجيل، ط1، بيروت، 1992.
- حسين مؤنس، فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح إلى قيام الدولة الأموية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، جدة، 1985.
- رشيدة عبد الحميد اللقاني، ألفاظ الحياة الاجتماعية في كتابات الجاحظ: دراسة في التطور الدلالي للعربية، ط1، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1991.
- رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، مراجعة: جمال الحياط، د. ط، دار الرشيد للنشر، ج4، بغداد، 1988.
- الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)، لحن العوام، تح: رمضان عبد التواب، ط1، المطبعة الكمالية، 1964.
- سالم السيّد عبد العزيز، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، د. ط، الإسكندرية، 1998.
- عبد الله بنمليح، ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي، د. ط، منشورات الزمن، الدار البيضاء، د. ت.
- عبد العلي الودغيري، دراسات معجمية: نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى، د. ط، الدار البيضاء، 2001.
- عيسى محمد عبد الحميد، تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 1982.
- كحيلة عبادة، تاريخ النصارى في الأندلس، المطبعة الإسلامية الحديثة، د. ط، القاهرة، 1993.
- ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، تر: ذوقان قرقوط، د. ط، بيروت، د. ت.
- مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، القاهرة، د. ط، مجمع اللغة العربية، د. ت.
- المقرّي (شهاب الدين أحمد بن محمد)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، د. ط، بيروت، 1968.

